

الطائفة

عناصر الموضوع

٣٤٢	مفهوم الطاعة
٣٤٣	الطاعة في الاستعمال القرآني
٣٤٤	الأنفاذ ذات الصلة
٣٤٦	الأساليب القرآنية في الحث على الطاعة
٣٥٦	أنواع الطاعة المجمودة
٣٧١	عاقبة الطاعة

مفهوم الطاعة

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد، يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعة يطوعه إذا انقاد معه، ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاع له، ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه»^(١).

وقال الليث: «الطوع: نقيض الكره، لتفعله طوعاً أو كرهاً، وطائعاً أو كارهياً، وطاع له إذا انقاد له، فإذا مضى لأمره فقد أطاعه، وإذا وافقه فقد طاوعه، قال: والطاعة: اسم من أطاعه إطاعة، والطواعية: اسم لما يكون مصدر المطاوعة، يقال: طاوعت المرأة زوجها طواعية»^(٢).

يتبين مما سبق أن المعنى اللغوي للطاعة يدل على الاصطحاب والانقياد وموافقة الغير.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

لم يتعد المعنى الاصطلاحي للطاعة عن معناها اللغوي كثيراً، بل دار في فلكها، فحول معاني الانقياد والامتثال واتباع الأمر واجتناب النهي يدور المعنى.

قال ابن عطية: «الطاعة: هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر»^(٣).

وقال السيوطي: «الطاعة: امتثال أمر بات على حكم الواقعة»^(٤).

ولخص ذلك كله الطاهر ابن عاشور بقوله: «الطاعة: امتثال الأمر والنهي»^(٥).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٦٦.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٠٧.

(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص ٧٥.

(٥) التحرير والتنوير ٩/ ٣٠٣.

الطاعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طوع) في القرآن الكريم (١٣٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٧٣) مرة^(١).

والصيغة التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٤	﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]
الفعل المضارع	٢٩	﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨]
فعل الأمر	٢١	﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]
المصدر	٧	﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١]
اسم الفاعل	١	﴿فَقَالَ لِمَا وَالْأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [١١] [فصلت: ١١]
اسم المفعول	١	﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ تُطَاعُ ثُمَّ آمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢٠-٢١]

وجاءت الطاعة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الانقياد، لكن أكثر ما يقال في الالتزام فيما أمر^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الطاء، ص ٧٢٣-٧٢٦.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥١٩/٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبادة:

العبادة لغة:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه^(١).

العادة اصطلاحًا:

قال المناوي: العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعنى مطلق التذلل^(٢).

الصلة بين الطاعة و العيادة:

إن العبادة هي غاية الخضوع ولا تستحق إلا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعالى، ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود، والطاعة هي ذلك الفعل الواقع على حسب ما أراده المريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق، والعبادة لا تكون إلا للخالق^(٣).

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١٤٤٨/٢.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٣٤.

(٣) انظر: الفرق اللغوية، العسكري ٢٢١.

٢ التطوع:

التطوع لغة:

الطاء والواو والعين أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على الإصحاب والانقياد. يقال: طاعه يطوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره^(١).

التطوع اصطلاحًا:

التطوع في الأصل: تكلف الطاعة، وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالتنفل^(٢).

الصلة بين الطاعة والتطوع:

أصلهما من الطوع: الذي هو من الانقياد، والفرق بينهما أن الطاعة موافقة الإرادة في الفريضة، والنافلة والتطوع: التبرع بالنافلة خاصة^(٣).

٣ العصيان:

العصيان لغة:

الخروج عن الطاعة^(٤).

العصيان اصطلاحًا:

هو ترك الانقياد^(٥).

الصلة بين الطاعة والعصيان:

العصيان ضد الطاعة، وهو الامتناع عن الانقياد، وترك أمر الله تعالى، والخروج عن طريق الحق، ويقابله الطاعة التي هي امتثال الأمر والنهي^(٦).

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٣١/٣.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٠.

(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٣٥.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٥٨/٣٩.

(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٥١.

(٦) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٦٠٦/٢.

الأساليب القرآنية في الحث على الطاعة

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الطاعة، وفيما يأتي بيان لها:

أولاً: أسلوب الطلب (الأمر):

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الطاعة، فتارة تأتي بصيغة الأمر، ويشمل ذلك استخدام اللفظ نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل

عمران: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى على لسان أكثر من رسول لقومه: ﴿فَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٠٨-١١٠-١٢٦-١٣١-١٤٤-١٦٣-١٧٩]. [آل عمران: ٥٠]. [الزخرف: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم

والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمرُوا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية^(١).

ثانياً: أسلوب النهي عن ضده:

تأكدت معاني الآيات الأمرة بطاعة الله ورسوله بذكر الآيات الناهية عن المعصية، والإعراض والتولي أيضاً، وهذا كله ضد الطاعة، وهذا النهي يأتي أحياناً مذكوراً مع أوامر الطاعة؛ وذلك لتأكيد المعنى، والتحذير من المخالفة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

إن الله عز وجل بعد أن أمر بطاعته وطاعة نبيه بين أن إعراض المعرض عن ذلك لن يضر به إلا نفسه، فقد أقيمت الحجج، وانتهت الأعذار، وأدى النبي رسالته، وبلغ ما أمر به.

قال الألوسي: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَي: أعرضتم، ولم تعملوا بما أمرتم به ﴿فَأَعْلَمُوا﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٣.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وجاءت آيات أخرى تتوعد العصاة بالعذاب والخسران، وفي هذا نهى ضمني عن معصية الله ورسوله؛ لأنه طريق هلاك وضلال، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

هذه الآية جاءت بعد ذكر بعض أحكام الفرائض والموارث؛ ولذلك ربط كثير من العلماء بينها وبين ما قبلها، فقال الطبري: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في العمل بما أمراه به من قسمة الموارث على ما أمراه بقسمة ذلك بينهم وغير ذلك من فرائض الله، مخالفاً أمرهما إلى ما نهياه عنه ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ يقول: ويتجاوز فصول طاعته التي جعلها تعالى فاصلة بينها وبين

أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ولم يأل جهداً في ذلك فقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعذار، وانقطعت العلل، ولم يبق بعد ذلك إلا العقاب، وفي هذا - كما قال الطبرسي وغيره - من التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى^(١).

وقال ابن عاشور: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ تفريع عن «أطيعوا» واحذروا والتولي هنا استعارة للعصيان، شبه العصيان بالإعراض والرجوع عن الموضع الذي كان به العاصي، بجامع المقاطعة والمفارقة، وكذلك يطلق عليه الإدبار، ففي حديث ابن صياد (ولئن أدبرت ليعقرنك الله)^(٢)، أي: أعرضت عن الإسلام^(٣).

وهذا الأسلوب، أي: أسلوب الجمع بين الأمر بالطاعة، والتحذير والنهي عن التولي والإعراض؛ له أثر بالغ في تأكيد المعنى عن المستمع؛ ولذا نجده قد تكرر في أكثر من آية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَى اللَّهِ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) روح المعاني، الألويسي ١٧/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المتأقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٢٠٣/٤، رقم ٣٦٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ١٧٨٠/٤، رقم ٢٢٧٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣١/٧.

معصيته، إلى ما نهاه عنه من قسمة تركات موتاهم بين ورثتهم وغير ذلك من حدوده؛ يدخله نارًا باقيا فيها أبداً، لا يموت ولا يخرج منها أبداً، وله عذاب مذل من عذاب به، مخزله»^(١).

وقال ابن الجوزي: «ومن يعص الله فلم يرض بقسمه يدخله ناراً، فإن قيل: كيف قطع للعاصي بالخلود؟ فالجواب: أنه إذا رد حكم الله، وكفر به؛ كان كافراً مخلداً في النار»^(٢).

وليس المراد بهذا أن يقتصر العقاب المذكور على من عصى الله ورسوله في أمر الموارد فحسب، بل الآية جاءت عامة لتشمل كل معصية لله ورسوله في شتى الحدود والأوامر.

يقول الأصفهاني: «كما وصف في مراعاة الحدود ثواب مراعيها، وصف في تضييعها عقاب متعديها، وأطلق القول فيهما ليكون عاماً في ذلك وفي غيره من الحدود التي بينها، وذكر في العذاب الهوان، كما ذكر في غيره الخزي، لما عرف من عادة كثير من الناس أن تقل مبالاتهم بالشدائد ما لم يضامها الهوان، حتى قالوا: المنية ولا الدنية، والنار ولا العار، فبين أنه يجمع لهم الأوامر»^(٣).

ومثل هذا التوعد بالعذاب على المعصية والمخالفة العامة نجده في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّا فَأَلْجَأُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن عطية: «أمرهم بالحنز من عذاب الله ونقمته إذا خالفوا عن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ معناه: يقع خلافهم بعد أمره، وهذا كما تقول: كان المطر عن ريح، و«عن» هي لما عدا الشيء، و«الفتنة» في هذا الموضع الإخبار بالرزايا في الدنيا، وبالعذاب الأليم في الآخرة، ولا بد للمنافقين من أحد هذين ملكاً وخلفاً»^(٤).

وبين الله عز وجل أيضاً أن أوامره وأوامر نبيه من الأمور التي لا اختيار للمسلم فيها، بل يقبلها وينقاد إليها؛ لأن فيها مصلحة العبد في الدنيا والآخرة، حتى وإن جهل الحكمة من هذه الأوامر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١٩٨/٤.

(١) جامع البيان، الطبري ٧١-٧٢.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣٨١/١.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١١٣٩/٣.

ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] (٣).

ووردت آيات أخرى في ذم هؤلاء المتخلفين المعرضين عن طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَلَٰن يَكُن لَّهُم لُغُتٌ يَّاتُوا إِلَيْهِ مَدْعِينَ (٤٩) أَفَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ رَبَّاهُمْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾ [النور: ٤٧-٥٠].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بالسنتهم: ﴿ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾».

قال الطبري: «لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أي: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدى والرشاد» (١).

وفي سبب نزول هذه الآية خاصة، يذكر أهل التفسير سببين:

أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يخطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فقالت: لا أرضاه، ولست بناكحته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بلى فانكحيه، فإني قد رضيته لك) فأبت، فنزلت هذه الآية، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والجمهور.

وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخا زينب كره ذلك كما كرهته زينب، فلما نزلت الآية رضيا وسلما (٢).

لكن حتى إن صح سبب النزول المذكور فيبقى أن الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ما هنا، ولا رأي

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/٢٧١.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/٤٦٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٤٢٣.

كفر محض، والله عليم بكل منهم، وما هو عليه منطوق من هذه الصفات.

وقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك^(١).

ثالثاً: الثناء على المطيعين:

الثناء على أصحاب بعض الأعمال أو المواقف من الأشياء التي لها أبلغ الأثر في نفوس هؤلاء العاملين، ترفع معنوياتهم، تحفزهم، تشجعهم، تعينهم على مواصلة عملهم؛ لذلك كان الثناء وسيلة تربوية، استخدمت في القرآن والسنة.

وممن أثنى الله عليهم في كتابه: المطيعون، فلقد وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل تثني عليهم وتمدحهم، وتنتعهم بأحسن الصفات، فتارة تنتعهم بالإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرٌ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وسبب نزول هذه الآية: أنه لما نزلت

وإذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُسْرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ٦١ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْتَفِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا [النساء: ٦٠-٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَكُنَ لَهُمُ الْغِيَاثُ إِلَىٰ مَذْعَبٍ﴾ [النور: ٤٩].

أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله: ﴿مَذْعَبٍ﴾ وإذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ليروج باطلهم، فإذعانهم أولاً لم يكن عن اعتقاد منهم أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهوهم؛ ولهذا لما خالف الحق قصدهم عدلوا عنه إلى غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرُسُلَهُ﴾ [النور: ٥٠].

يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وإيا ما كان فهو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٤.

«قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].
قال: نعم^(١).

فكان في هذا ثناء من الله عز وجل عليهم، وعلى طاعتهم وانقيادهم، وشهادة لهم من الله بالإيمان، وكفى بها شهادة، وكان هذا كله ثمرة لانقيادهم وطاعتهم لأمر نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وفي آية أخرى ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات، فكان من صفاتهم أنهم مطيعون لله ولرسوله، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وتارة نجد الآيات تنعت المطيعين بالفائزين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ فَاتُفِقْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه)، ١١٥/١، رقم ١٢٥.

على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا ما نقول، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا، لكان ذلك خيراً لهم عند الله، «وأقوم» أي: وأعدل وأصوب في القول»^(٣).

رابعاً: بيان عاقبة المطيعين:

لأجل أن يتم الثبوت والتحسين في الاستجابات التي يقوم بها الفرد، لا بد من توفر عامل أطلق علماء النفس عليه عامل الجزاء، فالاستجابات إذا لم تؤد إلى نوع من الترضية، أو الجزاء، أو الإشباع فإن الفرد لا يحاول تكرارها.

ولقد فطر الله الإنسان على حب المثوبة، وما فيها من لذة ونعيم؛ ولذا فإنه يرغب في ذلك، ويعمل من أجل تحقيقه، كما فطره أيضاً على بغض العقاب، وما يترتب عليه من ألم وشقاء؛ لذا فإنه يرهبه، وينفر منه.

ولهذا عني القرآن الكريم والسنة النبوية بالترغيب والترهيب، والثواب والعقاب كأسلوب مهم من أساليب التربية.

ويمتاز أسلوب الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب في القرآن الكريم والسنة النبوية عن غيره من أساليب الثواب والعقاب في المناهج التربوية الأخرى

قال الطبري: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١) فيما أمره ونهاه، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله ويحذره، ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه «فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» برضا الله عنهم يوم القيامة، وأمنهم من عذابه»^(٢).

ومثل هذا المعنى نجده في قوله تعالى: «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا» [الأحزاب: ٧١].

وتارة نجد الآيات تنعت المطيعين بالمفلحين، كما في قوله تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [النور: ٥١].

قال الطبري: «المنجحون المدركون طلباتهم، بفعلهم ذلك، المخلدون في جنات الله»^(٣).

وتارة ينعت الله طاعة المطيعين بالخيرية والصواب، كما في قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ» [النساء: ٤٦].

قال الطبري: «ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم قالوا لنبي الله: سمعنا يا

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/٢٠٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ٨/٤٣٦.

بالحكمة، ومن أمر البدعة والهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطقاً بالبدعة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ تَطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾^(٢).

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإن تطيعوا -أيها الناس- رسول الله -فيما يأمركم وينهاكم- ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْبَلَاغَ﴾» يقول: وغير واجب على من أرسله الله إلى قوم برسالة إلا أن يبلغهم رسالته بلاغاً يبين لهم ذلك البلاغ عما أراد الله به، فليس على محمد -أيها الناس- إلا أداء رسالة الله إليكم، وعليكم الطاعة، وإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم تصيبون، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون»^(٣).

وقال أبو السعود: «﴿وَأَنِ تَطِيعُوا﴾ أي: فيما أمركم به من الطاعة ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأصلي الموصل إلى كل خير، والمنجي من كل شر»^(٤).

٢. النصر في الدنيا على الأعداء، والغنيمة والخير الكثير.

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسْئَعُونَ إِلَيَّ قَوْمِ أُولَىٰ بِأَمْرِ شَيْءٍ نَّقْنِئُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٧.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٨٩.

-بأنه يعتمد على الإقناع والبرهان، ويكون مصحوباً بتصوير فني رائع للثواب المرغوب فيه، المتمثل في الجنة، وكذلك للعقاب المنتظر، المتمثل في جهنم أعادنا الله منها- كما يعتمد الترغيب والترهيب في القرآن والسنة أيضاً على إثارة الانفعالات، وتربية العواطف الربانية؛ كعاطفة الخوف من الله تعالى، والتذلل والخشوع له سبحانه والطمع في رحمته، والأمل في ثوابه^(١).

ومما يزيد من دافع الطاعة عند المؤمن: الثواب العاجل الذي يلقاه في الدنيا قبل الثواب الآجل في الآخرة، ففي الدنيا ينال المطيعون:

١. الهداية وإصابة للحق.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ تَطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْبَلَاغَ﴾ [النور: ٥٤]. وهذا نراه جلياً في حال هؤلاء الذين زينوا ظاهريهم وتعاملاتهم بطاعة الله ورسوله، وعمرؤا أسرارهم بمراقبة ربهم؛ فتراهم من أكثر الناس توفيقاً وسداداً، وإصابة للحق، على اختلاف الأحوال والوقائع.

قال ابن الجوزي: «﴿وَأَنِ تَطِيعُوا﴾ يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿تَهْتَدُوا﴾ وكان بعض السلف يقول: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطقاً

(١) أصول التربية الإسلامية، عبد الرحمن النحلاوي، ص ٢٣٠.

ذهب جمعٌ من المفسرين إلى أن الأجر الحسن المذكور في الآية هو: الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة^(١). وعلى هذا يكون الأجر الحسن هنا من الثواب العاجل والأجل.

وقد رأينا في واقعنا كيف ينصر الله المسلمين ويظهرهم على أعدائهم، إذا ما اعتصموا بربهم، واتبعوا سنة نبيهم، ولو كانوا أقل عدداً وعتاداً منهم، ومثال ذلك ظهر جلياً في عبور المصريين، واقتحامهم لحاجز خط بريف اليهودي الصهيوني، يوم عبروا صائمين، وبأصوات كالرعد مكبرين: الله أكبر، الله أكبر، لقد طلبوا النصر من الله، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة - كما أمر الله - فحقق الله لهم وعده، فأرهبوا عدو الله وعدوهم، على الرغم من قلة عددهم وعتادهم.

٣. نزول الرحمات، وتحقيق الأمن والأمان.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وهذه الرحمة عامة تشمل الدنيا قبل الآخرة، فهي أيضاً من الثواب العاجل

والأجل.

قال ابن عاشور: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن، وفي الآخرة بالدرجات العلى^(٢).

وقال الطبري: «وأقيموا - أيها الناس - الصلاة بحدودها، فلا تضيعوها، وآتوا الزكاة التي فرضها الله عليكم أهلها، وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم ونهاكم؛ كي يرحمكم ربكم، فينجيكم من عذابه»^(٣). أما المعصية وهجر الطاعة فإنها سبب لنزول العذاب على أصحابها؛ ولذا نرى المصائب والكوارث والحوادث تكثر في تلك البلاد التي تنتشر فيها المعاصي، وتقل فيها الطاعات، ويستهان فيها بأوامر الله ورسوله.

وأما في الآخرة: فالثمرة أعظم وأكبر؛ لأن هذا ثواب باقٍ لا يحول ولا يزول، ومن هذا الثواب المذكور:

✽ المطيعون يأخذون أجورهم كاملة يوم القيامة، بلا نقص ولا ظلم.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُظِلُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

قال الطبري: «إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٧٣/١٦، أنوار التنزيل، البيضاوي ١٢٩/٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٠٩/٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨٩/١٨.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١٠/١٩.

وجهلك؟ قال: ما بي من وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك، فأذكر الآخرة، فأخاف أن لا أراك هناك، فنزلت هذه الآية^(٢).

والثاني: أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: ما ينبغي أن نفارقك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فنزلت هذه الآية.

والثالث: أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محزون، فقال: (مالي أراك محزوناً؟) فقال: يا رسول الله غداً ترفع مع الأنبياء، فلا نصل إليك، فنزلت هذه الآية^(٣).

ولا يعني هذا قصر تلك الدرجة على هؤلاء الأصحاب فحسب، بل هي عامة - بإذن الله وفضله - في كل من حقق الشرط المذكور في أول الآية.

يقول الطبري: «ومن يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضا بحكمهما، والانتفاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهى عنه من معصية الله؛ فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل

(٢) أخرج نحوه الطبراني في الأوسط ١/ ١٥٢، رقم ٤٧٧ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١٠٤٤/٦، رقم ٢٩٣٣.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٣٠ بتصرف يسير.

بما فرض عليكم، وتتهوا عما نهاكم عنه ﴿لَا يَلْبِسُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

أي: لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً، ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً^(١).

❖ يثيب الله - عز وجل بمنه وفضله - المطيعين الجنة خالدين فيها أبداً.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

❖ ينزل الله عز وجل المطيعين المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال ابن الجوزي: «في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، فرآه رسول الله يوماً فعرف الحزن في وجهه، فقال: (يا ثوبان، ما غير

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٣١٦-٣١٧.

الجنة»^(١).

وقال ابن كثير: «من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانياتهم»^(٢).

وكل هذه الآيات وما سبقها من ثناء على المطيعين لله ورسوله تبين كذب الكافرين الذين وعدوا أتباعهم بالخسران إن أطاعوا المرسلين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۚ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤].

أنواع الطاعة المحمودة

بين القرآن الكريم أنواع الطاعة المطلوبة من المؤمن الامتثال لها، وفيما يأتي بيان لها: أولاً: الطاعة لله ورسوله:

طاعة الله عز وجل طاعة مطلقة، فكل أوامر الله عز وجل يجب تنفيذها بقدر الاستطاعة، بدون قيد أو شرط أو تردد؛ لأنها أهم أنواع الطاعات، وأصل كل الطاعات، أمر الله بها عباده، ورتب على هذا الأمر الثواب العظيم لمن أطاع، والعقاب الأليم لمن عصى، وجعل الطاعة سمة من سمات المؤمنين لا تنفك عنهم كما مر بنا آنفاً. وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك طاعة مطلقة؛ لأنه مبلغ عن الله، وطاعته طاعة لله عز وجل، وكذلك كل الرسل عليهم السلام.

والدليل على أن طاعة الرسول مطلقة؛ لأنها من طاعة الله:

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠].

فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى^(٣). ويؤكد هذا المعنى قوله عليه الصلاة

(١) جامع البيان، الطبري ٨ / ٥٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٣٥٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٣٦٣.

دخلت للتوكيد، والمعنى: وما أرسلنا رسولاً إلا ليطاع، وفي قوله: ﴿يَا ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الأمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الإذن نفسه، قاله مجاهد. وقال الزجاج: المعنى: إلا ليطاع بأن الله أذن له في ذلك^(٤).

وقال ابن كثير: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فرضت طاعته على من أرسله إليهم^(٥).

وقال أبو السعود: «وما أرسلنا رسولاً من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته، وأمره المرسل إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه؛ لأنه مؤد عنه تعالى، فطاعته طاعة الله تعالى، ومعصيته معصيته تعالى، من يطع الرسول فقد أطاع الله، أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته^(٦)».

ومن هنا نعلم أن مما يدخل في باب الطاعة المطلقة: طاعة الأمم السابقة لرسولهم، فكل رسول بعث إلى قومه أمرهم بطاعته؛ وذلك لأن فيها هدايتهم وفلاحهم؛ ولأنها طاعة لله عز وجل في الأصل.

ولذا نقرأ في مواطن شتى من كتاب الله عز وجل، في ثانيا الحديث عن قصص الأنبياء والمرسلين، دعوتهم قومهم لطاعتهم، وقرنهم هذا الأمر بتقوى الله عز وجل، وكأن المعنى: أنهم إذا اتقوا

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/٤٢٧، رقم ٤٢٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٣٤٧.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/١٩٦.

والسلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله)^(١).

وكذلك أقر النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً قام عنده فقال: (من يطع الله ورسوله فقد رشد)^(٢).

كذلك من الأدلة على أن طاعة الرسول من طاعة الله:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

قال ابن عطية: «هذا تنبيه على جلالة الرسل، أي: فأنت يا محمد منهم، تجب طاعتك، وتتعين إجابة الدعوة إليك، و﴿يَا ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ معناه بأمر الله، وحسنت العبارة بالإذن؛ إذ بنفس الإرسال تجب طاعته، وإن لم ينص أمر بذلك، والمعنى: وما أرسلنا بأمر الله أي بشريعته وعبادته من رسول إلا ليطاع^(٣)».

وقال ابن الجوزي: «قال الزجاج: «من»

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)، ٦١/٩، رقم ٧١٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ١٤٦٦/٣، رقم ١٨٣٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٥٩٤/٢، رقم ٨٧٠.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/٧٤ بتصرف يسير.

وَالرَّسُولُ ﴿٤﴾ أي: في جميع الأوامر والنواهي، فيدخل في ذلك الطاعة في أتباعه عليه الصلاة والسلام دخولاً أولياً، وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والإشعار بعلتها؛ فإن الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث إنه رسول الله لا من حيث ذاته، ولا ريب في أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها^(٤).

ومن الآيات أيضاً التي خاطبت غير المسلمين - حال نزولها - بطاعة الله ورسوله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

قال ابن عطية: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ» الآية مخاطبة لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار، وكل من يتعتى عن أمر محمد عليه السلام^(٥).

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المقسمين بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيَأْمُرْتَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣]. وغيرهم من أمتك ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أيها القوم فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فإن طاعته طاعة لله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يقول: فإن تعرضوا وتدبروا عما أمركم به

أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس. والثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود إلى الإسلام، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أشد حبا لله مما تدعونا إليه، فنزلت ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١]. هذا قول مقاتل.

والثالث: أنها نزلت في نصارى نجران، قاله أبو سليمان الدمشقي^(١).

واختار الإمام الطبري السبب الثالث؛ فقال: «يعني بذلك جل ثناؤه: قل - يا محمد - لهؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمداً، فإنكم قد علمتم يقيناً أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثته بالحق، تجدونه مكتوباً عندكم في الإنجيل، فإن تولوا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعرضوا عنه، فأعلمهم أن الله لا يحب من كفر بجحد ما عرف من الحق، وأنكره بعد علمه، وأنهم منهم، بجحودهم نبوتك، وإنكارهم الحق الذي أنت عليه، بعد علمهم بصحة أمرك، وحقيقة نبوتك»^(٢).

ومع ترجيح أي الأقوال في سبب نزول الآية فإن العبرة بعموم لفظها، فإن هذا «أمر لكل أحد من خاص وعام»^(٣). وقال أبو السعود: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٥.

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٩٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو نهاكم عنه، وتأبوا أن تدعوا لحكمه لكم وعليكم ﴿فَأَمَّا عَلَيْهِ مَا كَانَ﴾ يقول: فإنما عليه فعل ما أمر بفعله من تبليغ رسالة الله إليكم على ما كلفه من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ يقول: وعليكم -أيها الناس- أن تفعلوا ما ألزكم، وأوجب عليكم من اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتفاء إلى طاعته فيما أمركم ونهاكم^(١).

وقال ابن عاشور: «ويختلف معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بين معاني الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة، أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم»^(٢). ومن الآيات التي بينت أن الأوامر بهذه الطاعة المطلوبة شاملة للرجال والنساء على حد سواء؛ قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

كذلك وردت آيات تأمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء، والنساء بعدهن تبع لهن بالطاعة في أمور خاصة وأمور عامة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال الطبري: ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أركان ونهاكن^(٣). يعني من الأمور السابق ذكرها في هذه الآية والتي قبلها، فلقد نهاهن الله تعالى عن الخضوع واللين بالقول، وأمرهن بقول المعروف، ثم أمرهن بالتوقر والسكون في بيوتهن وأن لا يخرجن^(٤)، وألا يظهرن محاسنهن، وأمرهن بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم أردف هذه الأوامر والنواهي بالأمر العام بطاعة الله ورسوله، فيدخل فيه ابتداء ما ذكر^(٥).

قال ابن كثير: «نهاهن أولاً عن الشر، ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين، ثم قال: ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص»^(٦).

وهذه الأوامر والنواهي وإن كان المخاطب بها ابتداء نساء النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنها لا تتوقف عليهن وحدهن، فهي آداب أمر الله تعالى بها نساء

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/٢٦٢.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/٤٦١.

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/١٠٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٤١٠.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/٢٠٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/٢٨٠.

الْبَلَّغُ الْمُبِينُ» [المائدة: ٩٢].

هذه الآية ربطها كثير من المفسرين بالآيتين اللتين قبلها مباشرة، وهما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

قال الطبري: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في اجتنابكم ذلك، واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالفوا الشيطان في أمره إياكم بمعصية الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكم العداوة والبغضاء بينكم بالخمر والميسر»^(٢).

وقال القرطبي: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ تأكيد للتحريم، وتشديد في الوعيد، وامتنال للأمر، وكف عن المنهي عنه، وحسن عطف ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ لما كان في الكلام المتقدم معنى «انتهاوا»، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ذكر الرسول تأكيداً^(٣).

وليس المقصد بهذا الكلام أن يقتصر أمر الطاعة على أمر اجتناب الخمر والميسر

النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك^(١).

فدلّت هذه الآيات بمجموعها على أن المخاطب بالطاعة هم جميع البشر، مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم.

ميادين طاعة الله ورسوله:

تنوعت الأوامر بالطاعة الموجهة للمؤمنين، فتارة تأتي بأمر معينة محددة، وتارة تأتي مطلقة عامة في شتى الأمور، والأصل أن طاعة الله ورسوله - كما بينا - طاعة مطلقة في كل شيء جاء الأمر به، طالما وجدت الاستطاعة عند المكلف.

ومن الأمور الخاصة التي ورد الأمر بالطاعة فيها:

١. الأمر بالامتناع عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وهو أمر عام في القديم والحديث.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

(١) المصدر السابق ٦/٤٠٨.

وإن كان الحكم يختلف في حقهن عن باقي النساء، فقد قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٢/١٠: «هذا أمر خصص به، وهو وجوب ملازمتهم بيوتهن توقيراً لهن، وتقوية في حرمتهم، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة... وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين، وهو كمال لسائر النساء».

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/٥٧٤-٥٧٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٢٩٣.

السابق لتلك الآية، وإنما يراد ما هو أعم وأوسع من ذلك، وهو مطلق الطاعة لله ولرسوله، ويدخل ابتداء في ذلك: الطاعة في هذا الاجتناب المذكور.

قال الألوسي: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ عطف على «اجتنبوه» أي: أطيعوهما في جميع ما أمرا به ونهيا عنه، ويدخل فيه أمرهما ونهيهما في الخمر والميسر دخولاً أولياً ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: مخالفتهما في ذلك وهذا مؤكد للأمر الأول، وجوز أن يكون المراد أطيعوا فيما أمرا واحذروا عما نهيا فلا تأكيد، وجوز أيضاً أن لا يقدر متعلق للحذر، أي: وكونوا حاذرين خاشعين، وأمروا بذلك؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة^(١).

وقال ابن عاشور: «عطف جملة ﴿وَأَطِيعُوا﴾ على جملة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ وهي كالتذييل؛ لأن طاعة الله ورسوله تعم ترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وتعم غير ذلك من وجوه الامتثال والاجتناب، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ اهتماماً بالأمر بالطاعة، وعطف ﴿وَاحْذَرُوا﴾ على ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي: وكونوا على حذر، وحذف مفعول ﴿وَاحْذَرُوا﴾ لينزل الفعل منزلة اللازم؛ لأن القصد التلبس بالحذر

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٧.

في أمور الدين، أي: الحذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله؛ وذلك أبلغ من أن يقال: واحذروهما؛ لأن الفعل اللازم يقرب معناه من معنى أفعال السجايا؛ ولذلك يجيء اسم الفاعل منه على زنة فعل كفرح ونهم^(٢).

٢. الأمر بالتصرف في الأنفال والغنائم كما حدد الله في كتابه، وسن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

قال الطبري: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ معناه: وانتهوا أيها القوم الطالبون الأنفال إلى أمر الله وأمر رسوله فيما أفاء الله عليكم، فقد بين لكم وجوهه وسبله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم به من عند ربكم^(٣).

وقال ابن عطية: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لفظ عام، وسببه الأمر بالوقوف عند ما ينفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنائم، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: كاملي الإيمان، كما تقول لرجل: إن كنت رجلاً فافعل كذا^(٤).

وقال ابن الجوزي: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٨٥.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٠٠.

اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفاخرهم بقتل الكفار، والنكاية فيهم»^(٣).

٣. الأمر بالثبات والالتزام بما أمر الله به ورسوله عند ملاقة الأعداء، والصبر على قتالهم.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن كثير: «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا، ولا ينكلوا، ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتكلموا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزعجوا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا، فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم»^(٤).

وقال ابن عاشور: «فأما طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم، وكذلك ما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من آراء الحرب، كقوله للرماة يوم أحد: (لا تبرحوا

وَرَسُولَهُ) أي: اقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وغيرها»^(١).

وكما ذكرنا في الأمر السابق أن العبرة بعموم الآيات يظل قائمًا، مع التأكيد على خصوص السبب، نقول هذا هنا أيضًا.

قال البيضاوي: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان»^(٢).

وأيضا ورد الأمر بالتأكيد على نفس المعنى، وهو: الالتزام بما جاء في الكتاب والسنة بأمر الغنائم في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

قال ابن عطية: «الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن التولي عنه، وهذا قول الجمهور، ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول: إن الخطاب بقوله: ﴿وَأِنْ تَنْهَوْا﴾ [الأنفال: ١٩] هو للمؤمنين، فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه. وأما على قول من يقول إن المخاطبة بـ ﴿وَأِنْ تَنْهَوْا﴾ هي للكفار؛ فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨٨.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩.

من مكانكم، ولو تخطفنا الطير»^(١)»^(٢).

وقال أبو السعود: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما تأتون، وما تذرّون، فيندرج فيه ما أمروا به ها هنا اندراجاً أولياً»^(٣).

وقال ابن عطية: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية: استمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم و﴿فَنَفْسُكُمُ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي، قال أبو حاتم: «في كتاب عن إبراهيم «فتفشلوا» بكسر الشين! وهذا غير معروف»، وقرأ جمهور الناس ﴿وَتَذَهَبَ﴾ بالتاء من فوق، ونصب الباء، وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم «وتذهب ربحكم» بالتاء، وجزم الباء، وقرأ عيسى بن عمر «ويذهب» بالياء من تحت، ويجزم «يذهب» وقرأ أبو حيوة «ويذهب» بالياء من تحت، ونصب الباء، ورواها أبان وعصمة عن عاصم»^(٤).

وكذلك في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

قال الطبري: «وقد قيل إن ذلك معاتبه من الله عز وجل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خالفوا أمره يوم أحد، فأخلوا بمراكزهم التي أمروا بالثبات عليها»^(٥).

ولأن الأوامر في القرآن والسنة كثيرة لا تحصى وردت الآيات العامة المطلقة التي تحض على طاعة الله ورسوله في كل أمر، كما في قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَقِمْوا بَيْنَ يَدَيِ رَبِّكُمْ صِدْقًا فَإِذَا تَرَ تَفْعَلُوا﴾ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَصَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُنِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

فعلى المؤمنين الطاعة في شتى مجالات حياتهم، فيما ورد عن الشارع فيه أمر أو نهى، ليس فقط في أداء عباداتهم، بل حتى في تجارتهم، في تعاملاتهم، في حال حربهم وسلمهم، في نشاطهم وكسلهم، وأن يعلنوا انقيادهم وإذعانهم لما أمروا به.

قال ابن كثير: «أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر».

قال الزهري: «من الله الرسالة، وعلى

(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠٦/٧.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، ٦٥/٤، رقم ٣٠٣٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/١٠.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢٥/٤.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥٣٦/٢.

وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٤/٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٦٢/٣.

الإيمان كما في حديث معاذ: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: (إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فأول ما تدعوهم إليه، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة) (٤)، وتفرع ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتولي مستعار للعصيان، وعدم قبول دعوة الرسول.

ووصف البلاغ بـ ﴿الْمُيِّنُ﴾ أي: الواضح عذر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ادعى ما أمر به على الوجه الأكمل قطعًا للمعذر عن عدم امتثال ما أمر به (٥).

وقد يكون هذا الإعراض عن الطاعة أيضًا، والولوج في بحار الكبائر والمعاصي: سبيًا في بطلان العمل؛ لذا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

قال الطبري: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ١١٩/٢، رقم ١٤٥٨، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه، ٥٠/١، رقم ١٩.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/٢٨٠.

الرسول البلاغ، وعلينا التسليم (١) (٢).

وأما إن أعرضوا عن ذلك: فلن يضر هذا الرسول الذي بلغ عن ربه، وإنما سيضر من أعرض وخالف النور الذي أتى به إليه.

قال أبو السعود: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كرر الأمر للتأكيد، والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن إطاعة الرسول، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي: فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه (٣).

وقال ابن عاشور: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ عطف على جملة ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

لأنها تضمنت أن المؤمنين متهيئون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعونهم إليه من مصالح الأعمال، كما يدل عليه تدليل الكلام بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١١].

ولأن طلب الطاعة فرع عن تحقق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا عن الزهري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، ١٥٤/٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٣٨/٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢٥٨/٨.

إياهما، وكفركم بربكم ثواب أعمالكم، فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح^(١).

وقال ابن الجوزي: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ اختلفوا في مبطليها على أربعة أقوال: أحدها: المعاصي والكبائر، قاله الحسن، والثاني: الشك والنفاق، قاله عطاء، والثالث: الرياء والسمعة، قاله ابن السائب، والرابع: بالمن^(٢).

وأما القرطبي فقد ربط بين هذه الآية والتي قبلها فقال: «لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سنته ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: حسناتكم بالمعاصي، قاله الحسن، وقال الزهري: بالكبائر، ابن جريج: بالرياء والسمعة، وقال مقاتل والشمالي: بالمن، وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان^(٣).

بقي هنا أخيراً أن نقول: إن الأوامر التي يجب الطاعة فيها للرسول صلى الله عليه وسلم هي «ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين، وأما ما ليس داخلاً تحت التشريع فطاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن بريرة

لم تطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراجعة زوجها مغيث لما علمت أن أمره إياها ليس بعزم^(٤)».

ثانياً: الطاعة في غير معصية الله:

مر بنا فيما سبق أن طاعة الله عز وجل ورسوله طاعة مطلقة، وهناك طاعات أخرى دل عليها الكتاب العزيز، خاصة بأصناف معينة من الناس، إلا أن هذا النوع من الطاعة ليس مطلقاً كسابقه، بل هي مقيدة بقيد مهم، ألا وهو: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)^(٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة، ٤٨/٧، رقم ٥٢٨٣ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبداً يقال له: مغيث، كآني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس: يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو راجعته قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع قالت: لا حاجة لي فيه.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢٦/٢٦-١٢٧.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الأحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، ٨٨/٩، رقم ٧٢٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية،

(١) جامع البيان، الطبري ١٨٧/٢٢.

(٢) زاد المسير ١٢٢/٤.

وانظر: لباب النقول، السيوطي، ص ٨٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥٤/١٦.

وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه»^(٤).

ورجح آخرون -ويدو أن هذا هو الأقوى والأرجح- وهو: أن المراد بأولي الأمر: الأمراء والعلماء.

قال ابن القيم: «وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في أولي الأمر، وعنه فيهم روايتان:

إحدهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء.

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً، فإن العلماء والأمراء ولاية الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء ولايته حفظاً وبيانا وذباً عنه ورداً على من أُلحِد فيه وزاغ عنه، وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاى إلى أمرهم، وكون الناس تبعاً لهم،

ومن أنواع هذه الطاعات المقيدة ما يلي:

١. طاعة أولياء الأمور.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

اختلف أهل العلم في المراد بأولي الأمر المذكورين في الآية، هل هم الولاة والأمراء أم العلماء والفقهاء أم غير ذلك؟

فرجح جماعة -ومنهم الطبري- أنهم الولاة والأمراء، فقال بعد أن ذكر الخلاف في ذلك: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله طاعة، وللمسلمين مصلحة»^(١).

وقال ابن عطية: «أمر بطاعته عز وجل، وهي امثال أوامره ونواهي، وطاعة رسوله، وطاعة الأمراء على قول الجمهور»^(٢).

وقال ابن عاشور: «وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته؛ لقوله: (ومن أطاع أميري فقد أطاعني)»^(٣).

وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٤٠.

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولي الأمر منكم)، ٩/ ٦١، رقم ٧١٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٦، رقم ١٨٣٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٠.

والأمراء ولاته قيامًا وعناية وجهادًا وإلزامًا للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه، وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لها ورعية^(١).

وقد يغفل بعض الناس عن أهمية طاعة العلماء، ويقللون من خطر الخروج عن مشورتهم، فنجد كثيرًا من يتحدث عن وجوب طاعة الأمراء، وأهميته في تحقق الجماعة، واستتباب الأمن في المجتمع، وهذا حق، ولكنهم يغفلون عن أهمية طاعة العلماء، وحاجة الأمة كلها رؤساء وأمراء وعامة إليهم.

إن الخروج عن طاعة العلماء الربانيين، وترك مشورتهم مفسد للدنيا والآخرة، ولا يعني هذا تقديسهم أو التعصب لأقوال الرجال، ليس هذا إطلاقًا، بل متى ما عارض قولهم قول الله ورسوله رد، ولم يقبل، فقولهم معتبر، ورأيهم متبع؛ لأنهم يتبعون ما جاء من ربهم، ويبينونه للناس، فالله عز وجل جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويصبرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على

الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عقال الفتنة.

أما أولو الأمر من الأمراء فطاعتهم واجبة ما دام أنهم يحكمون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فلم يقل: وأطيعوا أولي الأمر، بل عطف طاعتهم على طاعة الرسول؛ إذ أنه لا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فطاعة أولي الأمر إذا ليست طاعة مفردة مستقلة، بل طاعتهم طاعة مستثناة فيما لهم وعليهم، واجبة لهم ما دام أنهم يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)^(٢).

٢. طاعة الوالدين.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٦٣/٩، رقم ٧١٤٤ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ١٤٦٩/٣، رقم ١٨٣٩.

(١) زاد المهاجر إلى ربه، ابن قيم الجوزية ص ٤١-٤٢.

الأمر، وكثرة الخطر فيه مع الله تعالى، ثم إنه لما كان بر الوالدين وطاعتهما من الأمر الذي قرره الشريعة وأكدت فيه، وكان من القوي عندهم الملتزم؛ قدم الله تعالى النهي عن طاعتهما، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ على معنى أنا لا نخل ببر الوالدين، لكننا لا نسلطه على طاعة الله لا سيما في معنى الإيمان^(٢).

وقال في موطن آخر: «وجملة هذا الباب: أن طاعة الوالدين لا تراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتستحسن في ترك الطاعات الندب»^(٣).

وقال ابن عاشور: «والمقصود من الآية هو قوله: ﴿وَأَنِ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ إلى آخره، وإنما افتتحت بـ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ لأنه كالمقدمة للمقصود؛ ليعلم أن الوصاية بالإحسان إلى الوالدين لا تقتضي طاعتهما في السوء ونحوه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)^(٤).

ولقصد تقرير حكم الإحسان للوالدين

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَأَنِ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ جَاهِدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

ذكر كثير من أهل التفسير أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص؛ وذلك أنه قال عن نفسه: «أنزلت في أربع آيات» - فذكر قصة - فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر، قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهًا» فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾^(١).

وقال ابن عطية بعد أن ذكر قصة سعد وغيرها: «ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام أو الهجرة، فكان القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا؛ لعظم

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٣٤٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٣٣٣، رقم ١٠٩٥.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٥٠، رقم ٧٥٢٠.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة العنكبوت ٥/ ٣٤١، رقم ٣١٨٩.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١٠/ ١١٠.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى آخر الآية^(٤).

وقال ابن كثير: «المرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه؛ فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرّم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها»^(٥).

في كل حال إلا في حال الإشراك، حتى لا يلتبس على المسلمين وجه الجمع بين الأمر بالإحسان للوالدين وبين الأمر بعصيانهما إذا أمرا بالشرك^(١).

٣. طاعة المرأة لزوجها.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ حَفِظْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمَّا فِي مَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَحَافُونَ نَشُوزَهُنَّ فَوَطَّوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَصْرِيهِنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

قال الطبري: «قُنِيتُ» يعني: مطيعات لله ولأزواجهن^(٢).

وقال القرطبي: «فَأَلْصَقَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» هذا كله خبر، ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه في ماله، وفي نفسها في حال غيبة الزوج، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)^(٣)، قال: وتلا هذه الآية:

باب طاعة المرأة زوجها، ١٨٤/٨، رقم ٨٩١٢.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٦٢٤/١، رقم ٣٢٩٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧٠/٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٩٤/٢.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/٢١٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٨/٢٩٤.

(٣) أخرجه الطيالسي ٨٧/٤، رقم ٢٤٤٤، والنسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء،

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

٢. يشيب الله عز وجل بمنه وفضله المطيعين الجنة، خالدين فيها أبدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

٣. ينزل الله عز وجل المطيعين المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ثانيًا: عاقبة طاعة الإنسان لإبليس:

الله عز وجل هو الخالق لهذا الكون، وهو الأعلّم بما يصلح عباده، وما يفسدهم، وما ينفعهم وما يضرهم؛ ولذا فقد حذرهم تبارك وتعالى مما فيه ضرر أو هلاك أو شقاء لهم، وبين لهم العواقب، وقص عليهم القصص، كل ذلك حتى يمثلوا أمره، ويحذروا مما حذرهم منه.

ومما حذر الله منه عباده: أن يتبعوا إبليس، أو خطواته، أو يتخذوه وليًا من دون الله؛ لأنه في الأصل عدو لهم، وعداوته

عاقبة الطاعة

أوضح القرآن عاقبة الطاعة في الدنيا والآخرة، وفيما يأتي بيان لها:

أولًا: عاقبة طاعة الله ورسوله:

طاعة الله ورسوله نبتة طيبة مباركة، تؤتي أكلها في الدنيا قبل الآخرة، فيحصل المؤمن جزاء عاجلاً قبل الجزاء الآجل، ففي الدنيا ينال الطائعون:

١. الهداية وإصابة للحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].
٢. النصر في الدنيا على الأعداء، والغنيمة والخير الكثير، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

٣. نزول الرحمات، وتحقيق الأمن والأمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وأما في الآخرة: فالثمرة أعظم وأكبر؛ لأن هذا ثواب باقٍ، لا يحول ولا يزول، ومن هذا الثواب المذكور:

١. المطيعون يأخذون أجورهم كاملة يوم القيامة، بلا نقص ولا ظلم، كما في

قديمة منذ خلق أبيهم آدم عليه السلام، يوم رفض السجود له، وأعلن عن حسده وبغضه، ونيته في إفساد ذريته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢].

ويقسم إبليس على ما يتتويه من شر للعباد، فيقول: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وبين خطته وطريقه الذي سيسلكه، فقال لربه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٨٣ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝٨٤ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّتُهُمْ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيُبَسِّتَنَّ أَهْذَاتِ الْأَعْيُنِ وَلَا يَسْمُرَنَّ فَلَيَمِغْزِيَنَّهُمْ خُلُقُ اللَّهِ ۝﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

وبين الله عز وجل لنا أن له أعوانًا من بني الإنس، يستخدمهم أيضًا لإغواء الناس وإضلالهم؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَلَئِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ولهذا وصفه الله عز وجل بأنه عدو ظاهر، لا تخفى عداوته، وأمرنا أن نعتبره كذلك؛ فلا نقاد له؛ ولا نتبع خطواته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۝﴾ [فاطر: ٦].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَجُعَا إِلَى الشَّجَرَةِ وَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْئِتُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآئَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا

مُيْنًا» [الإسراء: ٥٣].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١].

وقال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي وَآدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

وحتى يكون العباد على حذر أكبر من ذلك العدو بين الله عز وجل لهم عاقبة اتباعه في الدنيا والآخرة.
ففي الدنيا:

❖ يضل العباد عن طريق الحق، ويوقعهم في الشرك والضلال.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

قال الطبري: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد

بقلبك فتعلم ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ أنهم صدقوا بما أنزل إليك من الكتاب، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قلبك من الكتب ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا﴾ في خصومتهم ﴿إِلَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني إلى: من يعظمونه ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ يقول: وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم به الطاغوت الذي يتحاكمون إليه، فتركوا أمر الله، واتبعوا أمر الشيطان ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يعني: أن الشيطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق والهدى، فيضلهم عنها ضللاً بعيداً، يعني: فيجور بهم عنها جوراً شديداً^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [الحج: ٣-٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذمًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على

(١) جامع البيان، الطبري ٥٠٧/٨.

كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنصَابَ وَالْأَزْلَامَ رِجْسًا مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿[المائدة: ٩٠-٩١].

قال الطبري: «أي: إن شربكم الخمر، وقماركم على الجزر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، إثم وتث من تزين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي تدبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم» (٣).

وقال أيضًا: «إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر والمياسة بالقداح، ويحسن ذلك لكم، إرادة منه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر، ومياستركم بالقداح؛ ليعادي بعضكم بعضًا، ويغض بعضكم إلى بعض، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام، ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم، وياشتغالكم بهذا الميسر، عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم ربكم» (٤).

رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رءوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء؛ ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ (٢) كُتِبَ عَلَيْهِ ﴿قال مجاهد: يعني الشيطان، كتب عليه كتابة قدرية﴾ (أنه من تولاه) أي: اتبعه وقلده ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ إِلَىٰ عَذَابٍ سَعِيرٍ﴾ أي: يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلّم المزعج المقلق» (١).

بل إن الشيطان قد يعيد الإنسان إلى الضلال والكفر مرة أخرى، بعد أن تبين له طريق الحق والهدى والرشاد، ويزين هذا الباطل لأتباعه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

قال الطبري: «إن الذين رجعوا القهقري على أعقابهم كفارًا بالله من بعد ما تبين لهم الحق وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادًا لأمر الله تعالى؛ الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى» (٢).

يوقع أتباعه في الفواحش والموبقات، والبدع والمنكرات، ويصددهم عن ذكر الله وعن الصلاة.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٩٤/٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨١-١٨٠/٢٢ بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق ٥٦٤/١٠.

(٤) المصدر السابق ٥٦٥/١٠.

قوي عليهم ﴿فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طائفته ورهطه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة^(٣).

❖ يوقع العداوة بين المسلمين، ويثير الفتن والشكوك والحروب والنزاعات بينهم. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ لِنَ الشَّيْطَانِ كَانَتْ لِلإِنسَنِ عَدُوًّا مُّيْتًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال الطبري: «أي: قل -يا محمد- لعبادي يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة، فإن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا، ينزع بينهم، يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر، فإن الشيطان كان لآدم وذريته عدوًّا، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة»^(٤).

وهذا المعنى فطن إليه نبي الله يعقوب عليه السلام، فخشي على أبنائه من الشيطان أن يوقعهم في البغض والعداوة بينهم وبين يوسف؛ ولذا نصحه ألا يقص رؤياه الطيبة عليهم، فقال له: ﴿بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَنِ

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٣٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

قال ابن كثير: «أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضًا»^(١).

ومثل هذا المعنى يتأكد في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

قال الطبري: «الشيطان يعدكم أيها الناس بأدائكم الصدقة والزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أن تفتقروا، ويأمركم بالفحشاء، يعني: ويأمركم بمعاصي الله عز وجل، وترك طاعته»^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أَوْ لَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

قال القرطبي: «أي: غلب الشيطان واستعلى عليهم بوسوسته في الدنيا، وقيل:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٧٩/١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٥٧١/٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٠٦/١٧.

(٤) جامع البيان، الطبري ٤٦٩/١٧ بتصرف يسير.

عَدُوْمَيْتٌ ﴿[يوسف: ٥].

قال الطبري: «يقول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف: يا بني لا تقصص رؤياك هذه على إخوتك، فيحسدوك ويغفوك الغوائل، ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان؛ فإن الشيطان لآدم وبنيه عدو، قد أبان لهم عداوته وأظهرها، فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك بك بالحسد منهم لك، إن أنت قصصت عليهم رؤياك»^(١).

ولهذا المعنى أيضًا نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التنجى بالإثم والعدوان، وأن النجوى من فعل الشيطان ليدخل الحزن على بعض المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

أي: إنما النجوى -وهي المسارة- حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا من تسويل الشيطان وتزيينه ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئًا إلا بإذن الله، ومن أحس من ذلك شيئًا فليتوكل على الله، ويفوض جميع شئونه إلى عونه، ويستعِذ به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلب الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانًا ولو شاء لصرفه عنه^(٢).

(١) المصدر السابق ٥٥٨/١٥ بتصرف يسير.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٩٥/١٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير

ولهذا وردت السنة بالنهي عن التنجى، حيث يكون في ذلك تأذٍ على مؤمن، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه)^(٣).

قال القرطبي: «أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله؛ وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلًا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان، وأحاديث النفس»^(٤).

وهذه الخصومات والمشاحنات هو ما يسعى إليه إبليس بين المسلمين لإفساد العلاقات بينهم.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)^(٥).

أي: الإيقاع بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن ونحوها.

٤٤/٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة، ٦٥/٨، رقم ٦٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، ١٧١٨/٤، رقم ٢١٨٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/٢٩٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، ٢١٦٦/٤، رقم ٢٨١٢.

وأما في الآخرة:

فعاقة اتباعه: الخسران المبين، والعذاب الأليم، ودخول جهنم وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١٣١ يَعِدُّهُمْ وَيُعْمِنُهُمْ ۝١٣٢ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٣٣ أُولَٰئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].

قال الطبري: «ومن يتبع الشيطان فيطيعه في معصية الله وخلاف أمره، ويواليه فيتخذه ولياً لنفسه ونصيراً من دون الله: فقد هلك هلاكاً، وبخس نفسه حظها فأوبقها بخساً مبيناً، يبين عن عطبه وهلاكه؛ لأن الشيطان لا يملك له نصراً من الله إذا عاقبه على معصيته إياه في خلافه أمره، بل يخذله عند حاجته إليه، وإنما حاله معه ما دام حياً ممهلاً بالعقوبة، كما وصفه الله جل ثناؤه بقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُعْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: يعد الشيطان المريد أوليائه أن يكون لهم نصيراً ممن أرادهم بسوء، وظهيراً لهم عليه، يمنعهم منه، ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروهمهم، والفلج عليهم^(١)، وما يعد الشيطان أوليائه

(١) الفلج: بفتح الحين، الظفر والفوز والعلو على الخصم، يقال: فلج الرجل على خصمه وأفلج إذا ظهر عليه. انظر: جوهرة اللغة، ابن دريد ٤٨٧/١.

الذين اتخذوه ولياً من دون الله ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني: إلا باطلاً.

فهؤلاء الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله مصيرهم الذين يصيرون إليه جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: لا يجدون عن جهنم - إذا صيرهم الله إليها يوم القيامة - معدلاً يعدلون إليه^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ الذي نهيتكم أيها الناس أن تغتروا بغروره إياكم بالله ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يقول: فأنزلوه من أنفسكم منزلة العدو منكم، واحذروه بطاعة الله، واستغشاكم إياه حذرکم من عدوكم الذي تخافون غائلته على أنفسكم، فلا تطيعوه، ولا تتبعوا خطواته، فإنه إنما يدعو حزبه، يعني: شيعته ومن أطاعه، إلى طاعته والقبول منه، والكفر بالله ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يقول: ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها^(٣).

وقال تعالى: ﴿كَشَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ فكان

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢٤/٩-٢٢٦ بتصرف.
(٣) المصدر السابق ٢٠/٤٣٩-٤٤٠.

عَقِبَتْهُمَا أَنْتَهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿الحشر: ١٦-١٧﴾.

قال الطبري: «فكان عقبي أمر الشيطان والإنسان الذي أطاعه فكفر بالله أنهما خالدان في النار، ماكانا فيها أبدًا» ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: وذلك ثواب اليهود من النضير والمنافقين الذين وعدوهم النصر، وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به؛ أنهم في النار مخلدون^(١).

وتزداد حسرة أتباع الشيطان حينما يجتمعون به في الآخرة في جهنم، فيقوم خطيبًا فيهم، كما أخبر الله عز وجل في كتابه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال ابن كثير: «بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، قام فيهم إبليس -لعنه الله- حيثئذ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وغبنًا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ

(١) المصدر السابق ٢٣/٢٩٧.

الْحَقُّ﴾ أي: على السنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقًا، وخبرًا صدقًا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكًا لله عز وجل.

وهذا الذي قال هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَٰهٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقال: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الذِّينِ نَافِقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنييه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى الذين نافقوا بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم، ولئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم، وأجليتم عنها لنخرجن معكم، فنجلى عن منازلنا وديارنا معكم، ولا نطيع أحدا سألنا خذلانكم، وترك نصرتكم، ولكننا نكون معكم، وإن قاتلكم محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه لننصركم معشر النضير عليهم».

والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصرة على محمد صلى الله عليه وسلم لكاذبون في وعدهم إياهم ما وعدوهم من ذلك»^(٣).

وهذا الصنف من الناس -السابق ذكره- له عقل يميز به، ورأي ينفرد به؛ وليس له سيد أو كبير يقوده، بل قد يكون هو قائدا لمن وراءه.

عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

ثالثا: عاقبة طاعة الأتباع للمتبوعين:

أهل الباطل والضلال في تلك الحياة يتقادون لمن يماثلهم، ويطاوعون من يشابههم، ويظاهروهم على باطلهم ومعصيتهم، وقد سجل الله عز وجل ذلك عنهم في كتابه؛ فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

قال القرطبي: «إن المنافقين واليهود قالوا: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم مشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في مخالفة محمد، والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه، وتوهين أمره في السر، وهم إنما قالوا ذلك سرا، فأخبر الله نبيه»^(٢).

وقد يكون تظاهروهم مع إخوانهم من أهل الباطل بالقول فقط، ويتخلفون حال الفعل؛ لما في قلوبهم من جبن وخوف ومحبة للدنيا، وليس محبة أو طاعة لله ورسوله،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٤٨٩ -

٤٩٠ بتصرف يسير.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/٢٥٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/٢٩٠-٢٩١ بتصرف.

تَبَرَّؤْا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٥-١٦٧﴾.

قال القرطبي: «يعني: السادة والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر، وقال طائفة: هم الشياطين المضلون تبرؤوا من الإنس، وقيل: هو عام في كل متبوع ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ يعني التابعين والمتبوعين، قيل: بتيقنهم له عند المعاينة في الدنيا، وقيل: عند العرض والمسألة في الآخرة، قلت: كلاهما حاصل، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان، وفي الآخرة يذوقون أليم العذاب والنكال ﴿وَنَقَطَعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ أي: الوصلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من رحم وغيره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ﴾ أي: قال الأتباع: لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً، ونبرأ منهم ﴿كَمَا تَبَرَّؤْا مِنَّا﴾ والتبرؤ الانفصال ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم ﴿حَسَرَاتٍ﴾ والحسرة: أعلا درجات الندامة على شيء فائت ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنهم لا يخرجون منها»^(١).

وهناك صنف آخر من الناس في تلك الحياة أبى إلا أن يعيش متبوعاً، يترك عقله وناصيته بيد غيره، يحركه كيفما شاء، ويوجهه أينما أراد، ويا ليتة فعل ذلك مع أقوام مهتدين راشدين، يأخذون بيده لطريق الحق والنجاة لكانت العاقبة أنفع له وأنجح، لكنه فعل ذلك مع أقوام ظالمين ضالين، ضلوا وأضلوا؛ فكانت عاقبة اتباعهم الخسران، والعذاب الأليم.

وتزداد حسرة هؤلاء المتبعين حينما يجتمعون بأسيادهم وكبرائهم في النار، فيرون أنهم لا يغنون عنهم من عذاب الله شيئاً، بل يرون من اتبعوهم يتبرؤون منهم، وعندها: يعضون أصابع الندم على ما قدموه في حياتهم من ولاء وطاعة لهم، ويودون أن لو عادوا إلى الدنيا ليتبرؤوا من كبرائهم كما تبرؤوا منهم في الآخرة، وحينما يبأسون من هذه الأمانى؛ يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يضاعف العذاب لمن كانوا سبباً في غوايتهم وضلالهم.

هذه المواقف والمشاعر نقلها لنا القرآن الكريم في غير موضع وآية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^(١٥٠) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ فَتَنَبَّرْنَا بِمَنْ كَمَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/٢٠٦ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿وَيَبْرُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّمَعَتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَمَهْلَ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سُوءًا عَلَىٰ نَا أَجْرَ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

قال الطبري: «وظهر هؤلاء الذين كفروا بالله يوم القيامة من قبورهم، فصاروا بالبراز من الأرض ﴿بِجَمِيعًا﴾ يعني كلهم، ﴿فَقَالَ الْأُشْعَقَتِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: فقال التابع منهم للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله، واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان، والكفر بالله، ويتنهون عما نهوهم عنه من اتباع رسل الله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعنون: فهل أنتم دافعون عنا اليوم من عذاب الله من شيء؟

فَقَالَتِ الْقَادَةُ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ لَتُبَاعَهَا:

﴿لَوْ هَدَّيْنَاهُ اللَّهَ﴾ أَي: لَوْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَنَا شَيْئًا

نَدْفَعُ بِهِ عَذَابَهُ عَنَا الْيَوْمَ؛ ﴿هَدَيْتَكُمْ﴾

أَي: لَبَيَّنَّا ذَلِكَ لَكُمْ حَتَّى تَدْفَعُوا الْعَذَابَ

عَنْ أَنْفُسِكُمْ؛ وَلَكِنَّا قَدْ جَزَعْنَا مِنَ الْعَذَابِ،

فَلَمْ يَنْفَعْنَا جَزَعُنَا مِنْهُ وَصَبَرْنَا عَلَيْهِ ﴿سَوَاءٌ

عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيئِهِ﴾

أي: ما لهم من مراغ يروغون عنه»^(١).
وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقْلُبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ
يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أطعنا الله وأطعنا الرُّسُلًا ﴿٦٦﴾
وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا
السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّمَا ضَعُفْتَنِي مِنَ الْعَذَابِ
وَالْغَنَمِ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

قال ابن كثير: «يوم يسحب الكافرون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله، وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَبْعَثُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يَوَلِّيكَ لِيَتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَانَا خَلِيلًا» (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿[الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿رَبِّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم
يودون أن لو كانوا أطاعوا الله، وأطاعوا
الرسول في الدنيا.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ أي: اتبعنا السادة، وهم
الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا

(١) جامع البيان، الطبري ٥٥٧/١٦-٥٥٨
بتصرف يسير.

جاء بهذه الجملة في صيغة الماضي؛ لأن هذا القول كان متقدماً على قولهم: ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسهم العذاب، وهذا التنصل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب، وحشرهم مع رؤسائهم إلى جهنم.

قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِطْنِي وَأَمْلِكْ لِي وَتَرَى بَيْنَ يَدَيْهَا ظُلُمَاتٌ مُّسَوًّى قَالَتْ إِنَّكَ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ لِيُذَاقُوا الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يُعْصُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فدل على أن ذلك قبل أن يمسه العذاب، بل حين رصفوا ونسقوا قبل أن يصب عليهم العذاب، ويطلق إليهم حر النار.

والسادة: عظماء القوم والقبائل مثل الملوك، والكبراء: جمع كبير، وهو عظيم العشيرة، وهم دون السادة؛ ولذلك قولهم: ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ بقولهم: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾.

وجملة ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾ خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم، فالمقصود الإفضاء إلى جملة ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ومقصود من هذا الخبر أيضاً الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به

الرسول، واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿وَالْعَنَّا لَعْنًا كَبِيرًا﴾^(١).

وقال ابن عاشور: «والمعنى: يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلب في وجوههم لتتال النار جميع الوجوه، كما يقلب الشواء على المشوى لينضج على سواء، ولو كان لفح النار مقتصرًا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة.

وحرف «يا» في قوله: ﴿يَلَيْتَنَّا﴾ للتنبية لقصد إسماع من يرثي لحالهم، مثل ﴿يُخَسِّرُنَا﴾ [الأنعام: ٣١].

والتمني هنا كناية عن التندم على ما فات، وكذلك نحو: يا حسرتنا، أي: أن الحسرة غير مجدية، وقد علموا يومئذ أن ما كان يأمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم هو تبليغ عن مراد الله منهم، وأنهم إذ عصوه فقد عصوا الله تعالى، فتمنوا يومئذ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلغ عن الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَّا لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٨٣/٦ - ٤٨٤ بتصرف يسير.

مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾

[غافر: ٤٧-٤٨].

قال الطبري: «يقول تعالى: وإذا يتخاصمون في النار، وعنى بذلك: إذا يتخاصم الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنذارهم من مشركي قومه في النار، فيقول الضعفاء منهم، وهم المتبوعون على الشرك بالله ﴿إِنَّا كُنَّا كُفْرًا﴾ تقول لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة: إنا كنا لكم في الدنيا تبعًا على الكفر بالله ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُنْجُونَ﴾ اليوم ﴿عَنَّا نَصِيبُ﴾ مِنَ النَّارِ» يعنون: حفظًا فتخففوه عنا، فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا، ومن قبلكم أتينا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنين، فلم يصبنا اليوم هذا البلاء.

فأجابهم المتبوعون بما أخبر الله عنهم ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الرؤساء المتبوعون على الضلالة في الدنيا: إنا أيها القوم وأنتم كلنا في هذه النار مخلدون، لا خلاص لنا منها ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بفصل قضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون» (٣).

(٣) جامع البيان، الطبري ٣٩٨-٣٩٩/٢١ بتصرف يسير.

من الحقيقة؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾.

فيتجه عليهم أن يقال لهم: لماذا أطعتموهم حتى يغروكم؟! وهذا شأن الدهماء أن يسودوا عليهم من يعجبون بأضغاث أحلامه، ويغرون بمعسول كلامه، ويسيروا على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنوا ثمار أكمامه، وذاقوا مرارة طعمه، وحرارة أوامه (١)، عادوا عليه باللائمة، وهم الأحقاء بملامه.

وتقديم قولهم: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾ اهتمام بما فيه من تعليل لمضمون قولهم: ﴿فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ لأن كبراءهم ما تأتي لهم إضلالهم إلا بتسبب طاعتهم العمياء إياهم، واشتغالهم بطاعتهم عن النظر والاستدلال فيما يدعونهم إليه من فساد، ووخامة مغبة، وتسبب وضعهم أقوال سادتهم وكبرائهم موضع الترجيح على ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم (٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا كُفْرًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْجُونَ عَنَّا نَصِيبًا

(١) أوم: الأوام، كغراب: العطش، أو حره، يقال: في جوفه أومٌ وأوَّارٌ، وهو حرارة العطش.

انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٥٣/٣١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١٦/٢٢ - ١١٨ بتصرف.

ولهذه الآيات التي سبقت وغيرها والتي تبين عاقبة ومغبة اتباع أهل الباطل والكفر، وتبرأهم ممن تبعوهم؛ حذر الله نبيه وأصحابه والمؤمنين من طاعتهم، أو الانقياد إليهم؛ وذلك في غير آية من كتابه الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَغْغَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حَلَّافٍ مِّنْهُمْ﴾ [القلم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعُوا مِنْهُمْ إِنَّمَا أَنتَ كَوْنُورٌ﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِيعُوهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وبين الله عز وجل لهم أن عاقبة اتباع هؤلاء وأمثالهم، ستنزل بهم إلى كفر وضلال وخسران، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ

إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَنْ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَن تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وهذا خلاف لما يزعمه أهل النفاق، الذين يقعدون عن طاعة الله ورسوله، من أن طاعتهم تؤول باتباعهم لخير، كما قالوا في يوم أحد، فيما نقله الله عنهم في كتابه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قال الطبري: «فمعنى الآية: وليعلم الله المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين في حربهم المشركين بأحد يوم أحد فقتلوا هنالك من عشائريهم وقومهم ﴿وَقَعَدُوا﴾ هم عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرينا ﴿مَا قُتِلُوا﴾ أي: ما قتلوا هنالك».

قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين ﴿فَادْرَأُوا﴾ يعني: فادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ

صَدِيقَيْنِ ﴿فَأَنْتُمْ لَا مَحَالَةَ مَيْتُونَ﴾^(١).

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، الأمر، العبادة، محمد، النبوة

(١) جامع البيان، الطبري ٣٨٢/٧ بتصرف يسير.